الانتقال : الطائفة شكل جديد

لقد كانت مؤشرات انهيار السلطنة العثمانية أمام الهجمة الاستعمارية الغربية تتلخص في الجبل بعاملين رئيسيين :

١ ــ دخول الزراعة الآحادية (التوت ــ الحرير) المرتبطة مباشرة بالسوق الرأسمالية العالمية . وما يستتبع ذلك من ضرب أسس الملكية القديمة وربطها بالتجارة والكوميسيون .

٢ ــ توسع بيروت بوصفها مرفأ عملية التصدير والاستيراد .

استتبع هذا التطور بداية انهيار علاقات الملكية القديمة قانونيا ــ خط شريف كلخانة ــ وسياسيا بدخول عوامل مساعدة على رسملة الجبل (محمد علي ، ضرب الامير بشير للتوازن المقاطعجي) . وبداية انهيار شكل المراتبية القديمة ، الذي تحل مكانه الوحدة الطائفية . فأتت النعرة الدينية في لحظة انهيار الانتاج وبروز الشكل الجديد للملكية لتلعب دور قاعدة العلاقات الاجتماعية .

على أساس هذه الوجهة العامة ، نقرأ ثورة الفلاحين ١٨٥٨ بوصفها التعبير السياسي لمرحلة الانتقال . ونقرأ حرب ١٨٦٠ الاهلية الطائفية ، التي انتهت بتكريس نمط علاقات جديدة من جهة ، وبتكريس الطائفة المارونية كنعرة غالبة على الجبل بالتحالف مع الجيش الفرنسي الذي أتى غازيا .

هكذا تتوحد الطائفتان الرئيسيتان في الجبل : الموارنة على قاعدة الملكية الجديدة التي فتتت العشيرة لذلك كان التنظيم العسكري الماروني غير موحد . والدروز على قاعدة الملكية القديمة لرد التغييرات الرأسمالية القادمة الى الجبل . لذلك لم يوظف النصر العسكري الدرزي ، وتحولت الهزيمة المارونية الى انتصار فعلي كرس بالمتصرفية وبعد ذلك بدولة لبنان الكبير(٣) .

ان المستويات الثلاثة التي درسناها في القرن الثامن عشر ، تبقى في مرحلة الانتقال ، لكن مزاجها يصبح مختلفا . تصبح الطائفة هي التي تحكم هذه المستويات بوصفها قاعدة القرابة القائمة على التوزيع والتجارة . وتصبح العائلة قاعدة الطائفة بوصفها شكلا اجتماعيا يلائم الملكية الفردية الجديدة . أما العشيرة ، شكل التحالف العصبي القديم فتبدأ عملية انهيارها .

ان هذا الانقلاب ، في أولوية المستوى الذي يحكم المستويات الاخرى ، هو في الواقع التعبير العيني عن انتقال شكل الملكية في الجبل . فالملكية القائمة على الوساطة ، هي ملكية تستعير الشكل البورجوازي ــ ملكية فردية ــ من جهة . وهي ملكية حقوقية جرى تكريسها النهائي بانهيار زراعة التوت في الجبل في أوائل القرن من جهة ثانية . هكذا لا تضبط الملكية الحقوقية الا بالنعرة التي تحل محل العشيرة . لأن العشيرة فقدت نقطة ارتكازها الانتاجية ، وبدأت عملية انهيارها كشكل للعصبية .

تبدو هذه الترسيمة التي نقترحها لعلاقات المستويات الثلاثة بحاجة الى محاكمة داخلية . أي الى قراءة علاقاتها وربطها بالدولة ، بوصفها كانت المالك الاساسي للارض .

أ ــ ان علاقة العشيرة ــ العائلة هي علاقة تناقضية . فالعائلة بوصفها شكلا